الفصل الأول

اقتلهم جميعاً

«أنا هنا من أجل المال»

- الجنرال الأفغاني ضياء لودين مخاطباً وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية

«الحل هو أن تدعهم يقتل بعضهم بعضاً»، هذا ما قاله لي الرجل المسن المفعم بالحيوية والنشاط، الذي يقيم في ويندبريكر، في أثناء تناولنا طعام الإفطار المكوّن من عجّة الفيَستا المضاف إليها المزيد من فلفل الهلابينو الحرّيف في مطعم فلوريدة وافل هاوس. ثم أشار بيده إلى الأعلى وأضاف، «أرسل الأقمار الصناعية والتقط الصور. وأبق على فرق العمليات الخاصة في الجبال، على بعد خمسين ميلاً من المدن، ثم تسلل في الليل ونفذ المهمة، اقتلهم؛ وليكن القتل على غرار ما فعلنا في ألمانية. امح المكان عن وجه الأرض، ولا يكن في نفسك حرج من قتل الأبرياء؛ حتى النساء والأطفال منهم».

هذه هي كلمات بيلي واه الذي يبلغ من العمر خمسة وسبعين عاماً، أسطورة القوات الخاصة الأمريكية، صاحب الخبرة الطويلة في القوات شبه العسكرية التابعة لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، السفاح المشهور، قائد العمليات السرية، صاحب أطول خدمة في تعاقدات وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية التي يطلق على الفرد فيها «الغرير الأخضر». وناقشنا في أثناء الفطور أحدث رحلة قمت بها إلى العراق بصحبة متعاقدين أمنيين، وشمل النقاش كذلك الوضع المربك والمهلك هناك. وقدم لي بيلي رأيه الصريح وغير الموارب المذكور آنفاً عن ما يجب فعله في العراق لوقف الخسائر البشرية في صفوف الجنود الأمريكيين. ولم تكن إشاراته إلى التكتيكات والحيل التي

استخدمت في ألمانية وغيرها من الحروب مستقاة من كتاب ما بل كانت نابعة من أحداث عاصرها في حياته.

وأفضل مؤشر على عمر بيلي يأتي من التاريخ الطويل والمناطق الواسعة التي يتحدث عنها بضمير المتكلم، فقد حاول بيلي واه أن يسجّل اسمه للالتحاق بالمقاتلين في نهاية الحرب العالمية الثانية ولكنه أعيد إلى بلده باستروب في ولاية تكساس؛ لأنه كان في الخامسة عشرة من عمره في ذلك الوقت، واستطاع أخيراً أن يلتحق بالقوات شبه العسكرية عام 1947 حين بلغ السابعة عشرة؛ ثم انضم إلى القوات الخاصة عام 1954 التي لم يكن مضى على تأسيسها سوى عامين؛ وعمل على نحو متقطع في وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية بدءاً من عام 1961، مستمتعاً بمهنته المديدة في القتل والجاسوسية. ويحمل واه أوسمة بوصفه من قدامى محاربي الحرب الكورية، وخدم أيضاً مدة سبعة وعشرين شهراً في العمليات العسكرية جنوب شرقي آسية إبّان الحرب الفيتنامية، وخدم 11 سنة في القوات الخاصة، وشارك في عدد لم يحدد بعد من عمليات السي آي إي (C.I.A) بصفة موظف في الوكالة وهؤلاء يطلق على الواحد منهم وصف (غرير أزرق) أو بصفة متعاقد (غرير أخضر). ويعرف خلقاً كثيراً، وزار أماكن كثيرة- فيتنام، والبوسنة والهرسك، والسودان، وكوسوفو، والعراق، واليمن، وليبية، وأفغانستان، وعشرات من الدول الأخرى. وفي أثناء عمله في وكالة لاستخبارات المركزية بصفة موظف أو متعاقد، عمل بيلي في ست وأربعين دولة منذ عام 1989.

ويفتخر بيلي بعمله مع الوكالة، ولم يكتف بتأليف كتاب عنوانه مطاردة ابن آوى[1]، بل يسافر من ولاية إلى أخرى لإلقاء دروس ومحاضرات أمام طلبة الدراسات العليا، وجمعيات القوات الخاصة، وحتى فرق كرة القدم الأمريكية. وقد قطعت سيارته الجديدة من طراز لينكن تاون التي اشتراها قبل ثلاثة أشهر أكثر من 35 ألف كيلومتر، جاء أكثرها من التنقل بين ولاية فلوريدة والعاصمة واشنطن. يقول بلي معترفاً بأنه «لم يعد يقدر على السفر بالطائرة». وليس ذلك لأنه يخشى حوادث الطيران؛ بل لأنه

1- ابن آوى في الأصل دويبة من فصيلة الكلاب أصغر حجماً من الذئب، ولا يفصل آوى من ابن، وجمعه بنات آوى للذكر والأنثى ويجوز جمعه على بنو آوى، وبالإنجليزية (jackal) ويطلق هذا الوصف على أي شخص يتولى القيام بأعمال حقيرة لمصلحة شخص آخر أو يساعده على تنفيذها.

يحمل معه الكثير من السلاح. واعتاد تذكير جمهور المستمعين لخطبه التحفيزية بالقول: «إن جوهر القضية هو كيف ترتقي بسرعة وتبقى مستمراً في الارتقاء. كيف تكون ذا بأس شديد». ومن العجيب أن بيلي لا يزال على قيد الحياة بالنظر إلى عمره والتجارب التي مرّ بها. وفي لوحة ترخيص سيارته الأمامية المصممة بحسب طلبه بعض مفاتيح هذا اللغز. فعلى حين كُتب على اللوحة الخلفية عبارة: «جريح حرب من قدامى المحاربين»، توضح اللوحة الأمامية الجملة بعبارة مبسطة: «8 إصابات»، وإلى جانبها رسم لوسام القلب البنفسجي[1].

وأظن أن النادلة التي كانت تقوم بخدمتنا في مطعم الوافل هاوس حسبت هذا الرجل القصير المكتنز ذا الشعر الخفيف والنظارات الثخينة جداً مجرد جدّ ناهض الهمة. وليس في معطفه الأسود من نوع «للأعضاء فقط»، وقميص الغولف، وبنطاله العادي ما يثير أي فضول لديها، إلا إذا لاحظت شعار الجمجمة المتجهمة، وهي شعار القوات الأمريكية الخاصة على معطفه. ويمكن القول: إن ثقافة بيلي وسلوكه متأصلة في القوات الخاصة الأمريكية. فهو يلبس خاتمين كبيرين من الجيش، وقلادة تحمل شعار القوات الخاصة في عقد ذهبي، إضافة إلى ساعة ذهبية من طراز رولكس ديماستر مرصعة بالماس- وهذه الحلي ليست من قبيل الزينة بقدر ما هي علامات مميزة وشعارات شائعة لدى المنتسبين السابقين للقوات الخاصة. كما أن بيلي واه من مواطني ولاية تكساس، وهو مشهور بصراحته، ولا يطيق الحمقى. وعلى الرغم من تقدم عمره وعرجته -بسبب جروح أصابته في معارك قديمة- فإنه برشاقة جسمانية وعقلية كالتي يتمتع بها شاب في الحادية والعشرين من العمر. ويأتي حديثه مندفعاً متقطعاً كرشقات البندقية الآلية، مبتدئاً حديثه بوابل من الأسئلة، ومنهياً كلامه بعدد قليل من آرائه الشخصية.

التقيت بيلي أول مرة عبر الهاتف، وبدأ من فوره بطرح وابل من الأسئلة في أثناء حديثه. وجاءت تلك الأسئلة كالقصف الأولي لمدفعية الهاون،الهدف منها إرباك الطرف المقابل، أو تحديد موقعه بدقة. وحتى في المقابلة الشخصية، ينزع بيلي إلى تحديد موقف

1- واحد من النياشين التي يمنحها الجيش الأمريكي للأشخاص الذي يقومون بأعمال جسورة في أثناء الخدمة، ولا سيما الذين يصابون في أثناء العمليات القتالية.

الطـرف المقابل له على المنضدة، هل هو: عـدو أم صديق. فإن جاءت الأسماء والإجابات علـى وفق تفكيره، أصبحت صديقـه، وأما إن كانت غير ذلـك، فعندها يتوقف الحديث، وتنتهـي المقابلة عند ذلك الحد. والتنبيـه الوحيد الذي يوجهه إلى محبي الاستطلاع هو، «لا تتوقع مني أن أكشف لك عن أي معلومات سرية، أو أن أسيء إلى سمعة الوكالة».

ويتحدث بيلي عن القتل بالطريقة نفسها التي يتحدث بها الناس عن لعبة الغولف. فالقتل هـو عمله، ومهنته، والشـيء الذي يعرف ويتقن، وهو شيء دربته عليه الحكومة الأمريكية، وقدمـت له المال للقيام بـه منذ زمن بعيد. وليس الهدف من الأوصـاف التي يقدمها بيلي عن القتل والموت إثارة إعجاب السامعين؛ بل لإثبات الفرق بين الأخيار والأشرار من الناس في ذهـن السامع. ويجب أن يُعـذر بيلي على فجاجته هذه. وهو يسعـى دائمًا إلى مخالطة الجنـود الذين يفقهون ذلك. وهو في نظر مجتمع القوات الخاصة بطل أسطوري حيّ، كما أن الطريقة التي يتحدث بها عن نفسه مستخدماً ضمير الغائب، ومتلفظاً بمقاطع مشددة حين يلفظ اسمه –«بيلي واه»– تضفي عليه هالة من التفرد والشهرة.

ويصف بيلي واه نفسه في كتاب مطاردة ابن آوى، الذي ضمنه سيرة حياته، بأنه شخص لا يحسن العيش إلا في جو المعركة، شخص لا يمضي كثيراً من الوقت في القلق، والشكوى، أو تأمـل ما يفعـل. وقد أقدم بيلي على قتل عدد كبير من الناس، وواجه عدداً آخر حاولوا قتله، وكان من الموت المحقق قاب قوسين أو أدنى أكثر من مرة، وخسر كثيراً من أصدقائه. كمـا أنه اعتاد رائحة الموت، سواء عن طريـق استرجاعه جثث رفاقه البالية الذين قضوا في ساحـة المعركـة، أو عن طريق تحمله عبء دفن عشرات مـن أصدقائه المقربين. وعلى الرغـم من هـذا كله، وحتى في عمره المتقـدم، فإنه على استعداد تـام لأن يذهب إلى أي مـكان في العالم وتحـت أي ظرف من الظروف لقتل أعداء أمريكـة، أو لمساعدة الآخرين في قتلهـم، خدمة لبلده. غير أن عهده في قتـل أعداء أمريكة وتربصه بهم قد ولّى. وحتى في حـرب أمريكـة الجديدة على الإرهـاب التي رفعت شعار «حياً أو ميتـاً»، فإن بيلي يرى تغيـيراً في الطريقة التي يسمح فيهـا للشركات الأمنية الخاصة والقـوات شبه العسكرية أداء عملها.

ويذكر لي بيلي كيف تغيّرت تكتيكات القوات الخاصة منذ بداية حياته المهنية. وذكر أن «فكرة تطويق الجيش الفيتنامي الشمالي والالتحام معه في قتال وجهاً لوجه لم تكن تكتيكاً ذكياً، ولكنه كان التكتيك الوحيد الذي كنا نعرفه في الستينيات وبداية السبعينيات من القرن الماضي. أما التكتيك الجديد فيقوم على استخدام القوات الخاصة برفقة بعض الوكالات الحكومية الأخرى، وعلى عدم السماح لحلفائنا من العملاء المحليين بالالتحام مع العدو. وهذا التكتيك الجديد هو أن نخوض حرباً من النوع الذي يجري فيها القتال (من بعد) في أكثر الحالات. وعادة ما تكون المسافة الفاصلة المفضلة للاشتباك مع العدو ما بين أربعة إلى خمسة كيلومترات». والهدف من وراء الطريقة التي تتبعها وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية والقوات الخاصة هذه الأيام من تدريب الجيوش التي تقاتل بالإنابة عن الولايات المتحدة هو إيجاد علاقة تكون فيها الولايات المتحدة بمنأى عن أطراف النزاع. ويوضح بيلي أن الترخيص بالقتل عهد به إلى أطراف أخرى تجنباً لتحمل أي مسؤولية مباشرة عن أفعالهم. «إننا لا نضغط على الزناد ولكننا يقيناً نقدم لهم البندقية، والرصاص، ونريهم الهدف، ونعلمهم كيف يضغطون على الزناد، وهذا ما لم يكن بهذه الطريقة في السابق». ونظراً لخبرته المهنية الطويلة في العمليات السرية، فإنه لا أحد أدرى بالطريقة التي كانت تجري فيها العمليات مثل بيلي.

كان هدف القوات الخاصة منذ تأسيسها عام 1952، هو العمل من داخل العمق الجغرافي للعدو وراء خطوط المواجهة، وتدريب قوات المقاومة، والعمل على أنها قوة مضاعِفة. وكان يتم انتقاء عناصر القوات الخاصة من بين أفضل وحدات المظليين، وأكثرهم ضراوة، من ذوي التفكير المستقل، والذكاء الحاد، والأخلاق الرفيعة إنهم رجال يمكنهم تنفيذ الأوامر التي توجه إليهم ولكنهم يملكون القدرة على التفكير في أنفسهم في الظروف الحالكة في بيئة معادية. وكان أوائل المنتسبين إلى القوات الخاصة كلهم يتمتعون بمهارات لغوية أجنبية، وكانوا على الأقل برتبة رقيب، ولديهم استعداد للعمل داخل عمق العدو بلباس مدني. ونظراً للطبيعة السرّية للقوات الخاصة وارتباطها بوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، فإن أكثر الناس كانوا يجهلون وجودها حتى

بداية الستينيات من القرن الماضي، حين أصبح الرئيس كيندي داعماً متحمساً لها وأوعز بتوسيع دورها توسيعاً كبيراً في النزاع الفيتنامي الذي بدأ يشهد تصاعداً في حدته. وكان الدور الأولي لهذه القوات دوراً استشارياً ثم تحوّل إلى قوات عاملة في مسرح المعركة. وأبقي على علاقة هذه القوات بوكالة الاستخبارات المركزية في الخفاء.

ولدى وكالة الاستخبارات المركزية فرق شبه عسكرية خاصة بها، بعضها يعمل ضمن علاقة تعاقدية، وبعضها الآخر منتدب من الجيش. وسألت بيلي عن الفرق بين الاثنتين.

فرد علي بفرك إبهامه وسبّابته. «المال، وكالة الاستخبارات المركزية لديها المال، الكثير من المال. وكنا نحن [القوات الخاصة] نؤدي الجهد البدني».

لم يكن مفهوم القوات الخاصة بالمفهوم الجديد، غير أن أمريكة كانت تواجه نمطاً غير معهود من الحرب في منطقة جنوب شرق آسية – مقاومة شيوعية لم يكن لديها جيش نظامي كبير في ساحة المعركة؛ بل كانت ترسل عملاءها بملابس مدنية لتجنيد، وتدريب، وتزويد رجال المقاومة بالسلاح. وما فعلته وكالة الاستخبارات المركزية والقوات الخاصة في جنوب شرق آسية كان على وَفق النموذج الذي اتبعه مكتب الخدمات الإستراتيجية1 في فرنسة المحتلة مع الجدبورا الذين كانوا مكلفين بمهمة سرية تتطلب التوغل في مناطق العدو لتنسيق عمليات جهود الإمداد وتوفير الاتصالات. وقد شهدت جهود تدريبات وعمليات القوات الخاصة توسعاً نوعياً كبيراً، من التكتيكات البسيطة التي كان يتولاها الجدبورا في الحرب العالمية الثانية.

انضم بيلي إلى القوات الخاصة في منتصف الخمسينيات، وبدأ العمل في مهمات سرية لحساب وكالة الاستخبارات المركزية مع بداية عام 1961. وفي ذلك الوقت، لم يكن بيلي يعد نفسه شخصاً يقوم بعمليات سرية، مع أنه كُلّف عام 1965 بتشكيل فريق مهمات خاصة، وإنشاء قاعدة عمليات تنطلق من القسم الشمالي الشرقي من مقاطعة بنه دنه في فيتنام الجنوبية. وكانت مهمة بيلي هي تجنيد وتدريب جيش من المرتزقة

1- مكتب الخدمات الإستراتيجية واختصارًا بالإنجليزية (OSS) وهو سلف وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية. أنشئ عام 1942 واستمر عمله حتى عام 1945، وكان الهدف منه هو جمع المعلومات عن الدول المعادية في أثناء الحرب العالمية الثانية، وإفساد جهودها العسكرية لإيقاع الهزيمة بها.

-مجموعة دفاع مدنية غير نظامية، أو ما يعرف اختصاراً CIDG- بهدف إعاقة حركة جيش فيتنام الشمالية في عمق مناطق العدو. وقد جرى تمويل هذه العملية تحت بنود قسم الدراسات المشتركة التابع لوكالة الاستخبارات المركزية، فيما تولت القوات الخاصة تنفيذ هذه العملية.

قام بيلي وفريقه ببناء معقل بدائي بمحاذاة نهر آن لاو، ومهبط للطائرات مستخدماً قوة عاملة مؤلفة من مئة من المرتزقة الذين جرى جلبهم من المناطق المنخفضة. وبعد الفراغ من الإنشاء، تحولّت مهمة الفريق إلى تنسيق الجهود لمضايقة العدو في منطقة دائرية بقطر عشرين كيلومتراً حول قاعدتهم. وكان الجيش الفيتنامي يعلم بوجود تلك القاعدة ولكنه لم يحاول اقتحامها. وعلى خلاف ما كان يفعله الجدبورا في الحرب العالمية الثانية، الذين كانوا يعملون من داخل المدن الفرنسية المحتلة، أو من المزارع الواقعة على أطراف مدنها، فإن الأمريكيين كانوا ينفذون عملياتهم السرية انطلاقاً من قواعد ثابتة.

وفي الثامن عشر من يونيو عام 1965، انطلق فريق صغير مكوّن من ثلاثة عناصر من القوات الخاصة، ومعهم ثمانية وستون من مرتزقة فيتنام الجنوبية من معقلهم البدائي ليتسلقوا ممراً طوله سبعة عشر كيلومتراً بمحاذاة نهر آن لاو، ويستطلعوا مناطق العدو المحيطة بمعسكر تابع لجيش فيتنام الشمالية. وقامت المجموعة بالتخطيط لتنفيذ هجوم وحشي مختلس في الظلام كي تتيقن العصابات الفيتنامية الشيوعية أن المنطقة لا تصلح أن تكون قاعدة آمنة لمعسكرهم؛ لأنها محفوفة بالمخاطر. وقام بيلي ومجموعته بقتل ما يربو على مئة وستين من الجنود النائمين قبل انطلاق زفير أبواق النجدة التي تستنهض الأربعة آلاف جندي من الجيش الفيتنامي الشمالي الذين هبطوا إلى المعسكر في اليوم الفائت.

ولقي أكثر المرتزقة الفيتناميين حتفهم حين فروا في حقول الأرز السبخة. وأصيب بيلي في أثناء فراره برصاصة هشمت عظم ركبته اليمنى وأخرى أصابت قدمه اليمنى. واخترقت رصاصة ثالثة رسغه الأيسر متلفة ساعته اليدوية. وسقط بيلي على الأرض، متسربلاً بدمه، وبرزت عظامه البيضاء من بين ثيابه الممزقة، ومكث ينتظر الموت طريحاً على الأرض. وقد كان من المفروض أن تلك هي نهاية بيلي واه. ويتذكر بيلي أنه كان يحسب

بُعدَ الضوء الأخضر الذي يشعّ خلف الرصاص، لمعرفة المسافة التي تفصل بينه وبين جنود الجيش الفيتنامي الشمالي، وكان باستطاعته شم رائحة الكاز المنبعث من قنابل النابالم، التي كانت تلقيها قوات الإسناد الجوي الأمريكية، ويشعر بالحرارة المنبعثة منها، حتى جاءته رصاصة لامست رأسه فأغمي عليه في الحال.

استيقظ بيلي واه ضابط الصف ذو الخمسة والثلاثين عاماً بعد عدة ساعات ليجد نفسه عارياً من الملابس بيد العدو. وكانت الشمس تلسع جسمه المكشوف، وجفت الدماء بفعل حرارة الشمس لتصنع من دمه النازف أغلفة جامدة تلتصق بجسمه، بينما كانت آلام جروحه تنفجر في رأسه. واستمر القتال من حوله. ثم وصلت طائرة مروحية تحت وابل من النيران لإنقاذ بيلي ونقله إلى المعسكر الأمريكي، غير أن الجنديَّ الذي جاء ليحملَه إلى الطائرة أصيب مرتين بالرصاص في قلبه ورئته. وزحف بيلي بضعة أمتار وساعده الطاقم في الصعود إلى الطائرة. وفي حين كان بيلي مستلقياً في طائرة النقل العمودية، شاهد رصاص الجيش الفيتنامي يصيب ذراع مدفعية الطائرة وكاد أن يسقطها. وصل بيلي إلى المستشفى أخيراً ووجد نفسه وسط أكوام من الجنود القتلى. وحين هدأ وطيسُ المعركة، كان العدو قد خسر ست مئة جندي، ولم ينج من المرتزقة الثمانية والستين الذين كانوا تحت قيادة بيلي سوى خمسة عشر. كما قتل أمريكي آخر من فريقه الخاص، بينما نجا ثلاثة آخرون من بينهم بيلي.

عاش بيلي عدة شهور في عالم مخدر ضبابي بين الوعي والغيبوبة من فعل عقاقير مسكنات الآلام، واحتاجت جروحه إلى أكثر من عام لكي تبدأ بالالتئام. وفي نهاية هذا النفق المعتم، سمع بيلي هاتفاً يردد نداءَه الأسمى: بيلي يريد أن يعود إلى العمل، لكن ليس إلى ما سماه القوات الخاصة «التقليدية»؛ بل إلى «الجانب الأسود» من القوات الخاصة التي كانت تعمل مباشرة مع وكالة الاستخبارات المركزية. فقد سبق له أن شاهد الموت بأم عينه لذلك لم يعد يخشى الموت. وكانت جروحه تعني أنه لن يتمكن من العمل على الوجه الطبيعي، لكن بيلي لم يكن ليسمح لتلك الجروح أن تحطم حلم حياته في أن يكون جندياً. ولعل أكثر الجنود يستسلمون إلى القول إنهم استنفدوا حظهم في هذا المضمار، لكن بيلي أراد العودة، مظهراً عزيمةً عنيدةً وشكيمة أبيّة أصبحت فيما بعد علامة مميزة في سجله

المهنـــي القتالي، وأفزعت آخرين في كل مــرة يطلب فيها بيلي متطوعين للعمل في مهماته. لذلك لم يكن مستغرباً أن يفخر بيلي بعدها بميوله نحو العمل وحده.

ومع أنه لا يكاد يحسن المشي مما به من جروح، إلا أنه استطاع إقناع المسؤولين الكبار في وكالة الاستخبارات المركزية بتكليفه بالإشراف على مجموعة تدعمها الوكالة ويطلق عليها اســم مجموعة مساندة القيادة العسكرية والمراقبــة الخاصة في فيتنام المعروفة اختصاراً بالإنجليزية (MACV-SOG)، وكانت تلك المهمة هي نقطة تحول بيلي من الجانب العلني «الأبيض» من العمليات العســكرية إلى الجانب «الأســود» الســري من العمليـات الحربية -وهي عمليات في غاية السرّية وقابلة للإنكار من قبل الحكومة الأمريكية- ويجري تنفيذها في الخفـاء بمنتهى السرّيــة، وتحجب عن الشعب الأمريكـي والكونغرس. وكان لخبرته في عمليات القوات الخاصة وتلهفه إلى العودة إلى ساحة المعركة أثر في أصدقائه الذين تقبلوه ووضعــوه على مــتن طائرة وعهدوا إليه بمهمات المراقبة، والتحكـم، والإنقاذ. وحين توقف سيلان القيح من جروحه وبدأت تتماثل للشفاء، أذن له بالنزول إلى الميدان.

شكّلــت مجموعة مساندة القيادة العسكرية والمراقبــة الخاصة في فيتنام عام 1964 بوصفها مجموعة عمليات حربية مشتركة سرّية، غير تقليدية، للعمل في فيتنام، ولاوس، وكمبوديــا. ومع أنها كانــت في البداية مشروعاً عسكريــاً، إلا أن هذا البرنامج العسكري الاستخباراتــي المشــترك دمج بين شطــري العمليات التــي كانت مــن اختصاص مكتب العمليــات الخاصة في عهد الحرب العالمية الثانية. وقد جمعت مجموعة مساندة القيادة العسكريــة والمراقبــة الخاصــة في فيتنــام جهود كلٍ مــن وكالة الاستخبــارات المركزية، والقــوات الخاصة، والمرتزقة، والجماعــات المناهضة للمقاومــة، والمتعهدين المستقلين، وشركات الواجهة[1]، والشركات الشرعية في الحرب على فيتنام الشمالية. وقد استفادت هــذه العمليــة المشتركة من ضباط وكالــة الاستخبارات المركزية ومــن الجيش النظامي الذيــن قامــوا بتمويل وتوجيــه نشاط القــوات شبه العسكريــة المحلّية. وقــدّم استخدام المرتزقــة عنصــراً لنفــي المسؤولية غير متوافر لأفــراد الجيش النظامــي الأمريكي، ولا سيمــا في الــدول التي ليست طرفــاً في النزاع، مثــل كمبوديا ولاوس. واستمر عمل تلك

1- وهي شركات تجارية -وأحياناً منظمات خيرية غير حكومية- في الظاهر يتخذها جهاز الاستخبارات في دولة ما لممارسة نشاطاته الاستخباراتية تحت واجهتها في دولة ثانية دون علم تلك الدولة.

المجموعة حتى الثلاثين من إبريل من عام 1972، وأنهت الوكالة التي خلفتها والمسمّاة فريق مساعدة إدارة التقنية الإستراتيجية 158، أنهت جميع النشاطات السرية شبه العسكرية الأمريكية في فيتنام بتاريخ 12 مارس من عام 1973. وفي النهاية، كانت مجموعة مساندة القيادة العسكرية والمراقبة الخاصة في فيتنام زهاء ألفي عنصر من الأمريكيين وما يربو على ثمانية آلاف من العناصر المحلية.

كانت غالبية المتعاقدين المستقلين، الذين تعاقدوا مع وكالة الاستخبارات المركزية ضمن تلك المجموعة مؤلفة من المتقاعدين العسكريين الذين جرى استجلابهم عن طريق شبكات المعارف والأصدقاء، رجالاً ممن لديهم خبرة عسكرية؛ وممن يقدرون أهمية المحافظة على سرية ما يقومون به من أعمال؛ وممن يقدرون على إنجاز المهمات الضرورية لتوظيف وإدارة جيوش المرتزقة. وفي العادة يجري تجنيد المرتزقة من السكان المحليين، ويمكن توظيفهم بأموال وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، وتقوم على تدريبهم فرق تابعة للقوات الخاصة تعمل مباشرة مع وكالة الاستخبارات المركزية. وفي أثناء الحرب السرية التي جرت في لاوس منذ عام 1961 وحتى عام 1975، عمل عدد يتراوح ما بين 40 إلى 50 من موظفي وكالة الاستخبارات المركزية مع عدة مئات من المتعاقدين «المدنيين» (أكثرهم من المتقاعدين أو العاملين في الجيش) الذين وكلت إليهم مَهمة قيادة طائرات الاستطلاع والرصد، وإدارة القواعد العسكرية، وتشغيل محطات الرادار، بملابس مدنية. وكانت الفكرة هي شنّ حرب باستخدام المتعهدين من القطاع الخاص، مع تقديم خدمات الإمدادات والنقل والموارد لهم عن طريق شركات تابعة لوكالة الاستخبارات المركزية، وهي شركات تجارية تملكها وتمولها الوكالة. فكانت حرباً تشنها شبكة معقدة متشابكة مكونة من ضباط الاستخبارات، والقوات شبه العسكرية، والمتعاقدين المدنيين، إضافة إلى الجيش، وقد نسجت خيوط هذه الشبكة بحيث تكون قابلة للإنكار مع غياب مدروس ومحسوب لأي مسؤولية، أو عرضة للمحاسبة أمام الكونغرس، أو دافع الضرائب الأمريكي. وقد كانت العمليات السرية -وما زالت- تشكّل أعمالاً قذرة تنفذ في أماكنَ بعيدة بما يخدم أهداف وغايات المصالح الأمريكية.

كان أكثر التركيز الرئيس لوكالة الاستخبارات المركزية منصباً على التصدي لأي توسع للشيوعية بعد الحرب العالمية، ولكنها مع ذلك أخفقت في إيقاف الموجة الشيوعية

في فيتنــام. كما بــدأت الوكالة تتعرض للهجوم والنقد على الجبهــة الداخلية في الولايات المتحدة، بدءاً من المقالة التي نشرها سيمور هيرش في 22 ديسمبر/ كانون الأول، 1975، التــي اتهم فيها الوكالة بالتجسس على المواطنين الأمريكيين داخل الولايات المتحدة. وقد أنشأ الرئيس فـورد لجنة روكفلر للتحقيق في ادعاءات التجسس على الحركات المناهضة للحــرب وحركات الحقوق المدنية، كما أنشأ الكونغرس لجنة تشيرتش المنبثقة عن مجلس الشيوخ، ولجنة بايك المنبثقة عن مجلس النواب وذلك للبحث والتقصي في قضية تعسف وكالة الاستخبارات المركزية.

ثـم تبع ذلك هيجـان ماحـق استهدف أجهـزة الاستخبـارات في البـلاد؛ إذ أفضت التحقيقــات التــي كانت تهدف إلى التقصي عــن تجاوزات وكالة الاستخبــارات المركزية إلى فضــح الإخفاقات الكثيرة التي ارتكبتها الوكالة. كما كشفت التحقيقات عن أن وكالة الاستخبــارات المركزية من بين عــدد من الوكالات الفدرالية تعمدت إخفاء نفقات معينة، حتــى إن مكتب المحاسبة الحكومية لم يكن لديه علم بمجمــوع النفقات التي صرفت على العمليات السرية. وانتقد النائب بايك بمنطق سليم قدرة أجهزة الاستخبارات على تقدير النــزاع وألقى ظلالاً من الشك على النجاح الذي حققته العمليات السرية على مدى عشر سنــوات. وسردت لجنة تشيرتش بالتفصيل خطط وكالــة الاستخبارات المركزية لاغتيال زعماء كوبا، والكونغو، وفيتنام الجنوبية، وإندونيسية، وهاييتي، وجمهورية الدومينيكان. وأوضــح التقرير أن لا أحــدَ من المواطنين الأمريكيين أطلق النــار، غير أن الوكالة قدمت السلاح، والدعم، والتدريب وفي نيتها تحقيق تلك الأهداف.

وقد وجهت تحقيقات تشيرتش وبايك ضربة قاصمة لقدرة وكالة الاستخبارات المركزية علــى العمل بقوة واستقلالية. وجرى علــى وجه التحديد حظر القيام بالاغتيالات بموجب أوامــر رئاسية، وكبح جمــاح استخدام الحيل القذرة، والمرتزقــة، والمتعاقدين المستقلين، والعمــلاء بالإنابــة. وفجــأة، أصبح يُنظــر إلى الأشخاص مــن شاكلة بيلــي واه بوصفهم أشخاصاً يعيشون في غــير زمانهم، ويشكلون عناصرَ مثيرةً للقلاقل والأخطار. وجرى في ذلـك العــام فصلُ ما يربو على ثماني مئة عنصر ممن يعملون في العمليات السرية، وكاد قسـم النشاطات الخاصــة أن يتلاشى من الوجــود. ولو كان بيلي يعمـل بموجب عقد مع

وكالة الاستخبارات المركزية في ذلك الوقت، لأعفي حتماً من عمله، أو لأسندت إليه مهمة أخرى في ضوء نتائج تحقيقات لجنتي تشيرتش وبايك، وما أعقبها من إطفاء لشرارة وكالة الاستخبارات المركزية.

وفي ظل الاختفاء المؤكد للفرص من أمامه، شعر بيلي بعناية السماء تبتسم له حين جاءته مكالمة هاتفية، طلب المتحدث فيها أن يقابله في فندق معين في شمال ولاية فيرجينيا في 25 يوليو/ تموز عام 1977، وطلب منه أن يجهز نفسه للسفر في مهمة تستغرق عاماً كاملاً في الصحراء، وهذه مقدمة معهودة للدلالة على المهمات السرية، ويصاحبه في هذه المهمة ثلاثة أفراد من قدامى العاملين في القوات الخاصة، وكانت الدولة المقصودة هي ليبية. وكانت مهمة هذا الفريق هي تدريب مجموعة من القوات الخاصة تعمل مباشرة تحت إمرة العقيد معمّر القذافي. وكانت ملامح هذه المهمة تحمل كل سمات وخصائص ووظائف عملية سوداء في غاية السرّية ومسبوكة في قالب محكم من القابلية للنفي والإنكار الرسمي التام. ولم توجه إلى بيلي أي أسئلة خطيرة؛ ولم يخضع أي من أعضاء الفريق لتدقيق رسمي حول خلفيتهم. وكان المسؤول عن الفريق شخصاً يدعى إد ويلسون، وهو موظف سابق في وكالة الاستخبارات المركزية. ولم يكن على غير العادة أن يتولى موظف سابق، أو جندي سابق، عملاً بصفة متعاقد مستقل حرّ تحت غطاء غير رسمي.

وفي اليوم الذي سبق ميعاد سفر بيلي وفريقه إلى ليبية، تلقى اتصالاً آخر، وهذه المرة من شخص عمل في السابق في القوات الخاصة، تحت إشراف مباشر من وكالة الاستخبارات المركزية، وقدم له هذا الشخص ما يثبت صفته الرسمية، ولكنه لم يفصح عن اسمه. وكان بيلي متيقناً من أن هذا الاتصال صحيح، وليس مشبوهاً. وقد أخبر هذا الشخص الغامض بيلي أن مهمة ويلسون ليست مشروعاً رسمياً من مشروعات الوكالة، غير أنه أقدم على خطوة غير عادية بأن قدّم لبيلي آلة تصوير من نوع بينتاكس، وأخبره بأنه إذا التقط صورة لأي شيء مثير للفضول، فسوف يكون له مكافأة مالية. وقدم له هذا الشخص شيفرة سرية للاتصال به. ونظراً لحاجته إلى المال، لزم بيلي الصمت وقبل العرض.

أمضى بيلي سنة كاملة في تدريب القوات الليبية بموجب عقد ويلسون،وقام بتصوير عدد من المواقع لحساب وكالة الاستخبارات المركزية. وفي نوفمبر من عام 1979، بدأت

أزمـة الرهائـن الأمريكيين في طهران، وبدأت مظاهر العداء تجـاه الأمريكيين تنتشر في الشـارع العربـي، وأحرقت السفـارة الأمريكيـة في طرابلس الغرب، ونهبـت موجوداتها. أُمهـل بيلي ساعتين لمغـادرة ليبية، وتمكن من مغادرة البلاد علـى متن رحلة متوجهة إلى فرانكفورت بملابسه التي كان يلبسها وبضعة عشر فيلماً غير محمض.

أمـا إد ويلسون، فقد قبض عليه، وحوكم بتهمة نقل أسلحة إلى ليبية. وادعى بأنه كان يعمـل بدعم من وكالة الاستخبـارات المركزية، وهو ادعاء نفتـه الوكالة في شهادة خطية تحت القسم تليت في جلسة محاكمته، وجاء في الشهادة أن الوكالة لم تجر أي اتصال مع ويلسـون منذ السبعينيـات. وحكم على ويلسون بالسجن 53 عاماً، إلا أنه أفرج عنه أواخر عـام 2003، حين حكم قاض فدرالي بأن وكالـة الاستخبارات المركزية تعمدت الكذب في شهادتهـا حـين لم تذكر أنها اتصلت بويلسـون ثمانين مرة في تلك المـدة؛ بل والأنكى من ذلك، أن ويلسون تمكن من توثيق أربعين مهمة كلفته بها وكالة الاستخبارات المركزية بعد تقاعده من الوكالة. إن الخط الفاصل بين العمليات السرية والعمليات الإجرامية هو خط باهت في الغالب.

بعـد ليبية، انجـرف بيلي نحو نمـط مختلف من الحيـاة أكثر من عقد مـن الزمان، منفقـاً وقتـه في أعمال لا تروق له وفي معاقرة الخمر، فكانـت الثمانينيات سنوات ضائعة مـن حياتـه. وفي الوقت الذي دخل فيه بيلـي منتصف عمره وقد أرهقتـه الجراح وأثقلته مهنـة قضى فيهـا عشرين عاماً دخل في معركة متواصلة. حيـاة زاخرة بالمجهود الشديد والأخطار الجسام إلى حد أوصله إلى حالة من الملل الذي يبلد العقل. وقال لي، «لقد كنت أشـرب الخمـر كثيراً ولكنهم لم يعبـأوا بذلك. وقالت لي: وكالـة الاستخبارات المركزية: «إذا توقفـت عـن الشرب، فسنعيدك إلى العمل في». فقلت لهم: «حسناً، لست متيقناً من أننـي قضيت وطري من الشرب حتى الآن. أظـن أنني سأشرب المزيد». وحين توقفت عن الشرب، قالوا لي: «تعال، تعال، تعال».

وفي عـام 1989، تلقى بيلـي مكالمة من صديق سابق من القـوات الخاصة يدعوه فيها إلى واشنطـن. وكما يوضح بيلـي أن «الوظيفة هي أن تكون جزءاً من قوة ضاربة مصممة للقضـاء على أفراد يشكلـون خطراً على الولايات المتحـدة». لم يصدق بيلي حسن حظه. وظن هذه المرة أنه سيُكَلف بوظيفة متعاقد مستقل لتنفيذ تفويض رسمي بالقتل، وهو أمر

مفترض في زمن الحرب، لكن قلّما يُلجأ إليه في غير الأوقات التي تدور فيها رحى المعركة. وقد سبق أن عمل بيلي تحت وصف «غرير أزرق» -أي موظفاً في وكالة الاستخبارات المركزية- غير أن تلك الوظيفة لم ترق له، ولم تعجبه العاصمة واشنطن، فقد كان يحب العمل في الخارج، بحسب تقديره وبعيداً عن بيروقراطية لانغلي[1]. فقد كان بيلي ذئباً وحيداً يفضل العمل بمفرده، وهي صفة أحبتها الوكالة أيضاً.

اكتشف بيلي بعد تحمّسه الأولي، أن وكالة الاستخبارات المركزية لعام 1989، تختلف عما عهده بها في أيامه السابقة؛ إذ تقلّص الدور الذي تصوّره من كونه شخصاً مكلفاً بالقتل، إلى مجرد شخص يقوم بالمراقبة والترصد، وهو دور يشابه قيام الصياد بمراقبة فريسته عبر منظار البندقية، ولكنه ممنوع من الضغط على الزناد. وكان عليه أن يحمل معه آلة تصوير بدلاً من بندقيته المزودة بمنظار مقرب، وقلماً بدلاً من رصاص البندقية. وكلفت وكالة الاستخبارات المركزية بيلي بالبحث عن أعداء أمريكة ومراقبتهم، ورصد تحركاتهم، حتى يأتي الوقت الذي يصدر فيه قرار بتحديد مصيرهم.

كان بيلي يعلم أن الضجة الإعلامية التي صاحبت تحقيقات لجنة تشيرتش قد أرغمت الرئيس جيرالد فورد على التوقيع عام 1967 على المرسوم الرئاسي رقم 11905 – وهو مرسوم جاء في اثنتين وعشرين كلمة ويقضي بحظر الاغتيال بوصفه أداة من أدوات السياسة الخارجية الأمريكية. وقد أقر الرؤساء الذين أعقبوا فورد هذا المبدأ. ويشمل منطوق المرسوم المتعهدين والمرتزقة: «لا يسمح لأي شخص موظف لدى الحكومة الأمريكية، أو يعمل نيابة عنها، أن ينخرط في عمل الاغتيالات، أو أن يكون طرفاً في مؤامرة لتنفيذ الاغتيال». وفي الدور الجديد الذي أسند إلى بيلي واه بصفته متعاقداً مستقلاً مع وكالة الاستخبارات المركزية في إفريقية، فإن بإمكانه استخدام مهاراته كافة التي أتقنها في مراقبة وتعقب الأشخاص المعينين باستثناء مهاراته القاتلة. وجد بيلي نفسه في سنته الأولى من عودته إلى العمليات السرية متمركزاً في مرتع الإرهاب الإسلامي، أي: في العاصمة السودانية الخرطوم.

1- المقصود هنا قاعدة لانغلي الجوية في مدينة هامبتون الواقعة جنوب شرقي ولاية فيرجينيا، وتضم هذه القاعدة المركز الرئيس لقيادة عمليات سلاح الجو الأمريكي، ومركزاً لأبحاث الفضاء التابع لوكالة ناسا، إضافة إلى المركز الرئيس للقيادة والتدريب على المذهب العسكري الأمريكي. وهي قريبة نسبياً من العاصمة واشنطن، وتبعد عنها قرابة 130 ميلاً.

استمتع بيلي بإقامته في السودان. فهو يحب الدول العربية عموماً -وقد ساعد في ذلك معرفته بأساسيات اللغة العربية وارتياحه إلى ثقافة البلاد- وكان هناك الكثير من العمل في الخرطوم، أو «مدينة كي»[1]، كما تسميها الوكالة. وسرعان ما اكتشف بيلي أن عليه تعقّب كثير من الأشخاص، وأخذ كثيرًا من الصور، وكتب كثيرًا من الملحوظات، ورسم كثيرًا من الخرائط، وكتب كثيرًا من التقارير.

كان بيلي ينطلق من عمله من السفارة الأمريكية تحت غطاء دبلوماسي، وهو ما وفر له حصانة من ملاحقة السلطات السودانية له. وما لم يتمكن السودانيون من القبض عليه متلبساً بفعل محظور، فإن بإمكانهم مضايقته، ولكنهم لا يستطيعون إلقاء القبض عليه أو قتله. وكان بيلي يعمل وحده، وغالباً ما ينجز عمله في أثناء جريه في الليل: «كنت أتناوب العمل مدّة ستة أسابيع إلى تسعين يوماً بين فبراير/ شباط من عام 1991 ويوليو/ تموز 1992. ولو مكثت مدة أطول من شهر، فإن ذلك سيثير حفيظة الجهاز الأمني السوداني». وفي أثناء عمله في السودان، قرر رجل أعمال اسمه أسامة بن لادن أن ينقل مقره إلى السودان وأصبح واحداً من بين عدد كبير من الأشرار الذين يتحتم على بيلي مراقبتهم.

وكان يسيطر على السودان آنذاك حكومة إسلامية تتلقى دعماً سخياً من إيران. وكان الناشط الإسلامي المثقف حسن الترابي يتولى منصب نائب الرئيس وكان مسؤولاً عن السياسة الودّية التي تتبعها الدولة تجاه الجماعات الإسلامية المسلحة، والشخصيات الدينية المعارضة، والإرهابيين. وكان الترابي يحتمي وراء الرئيس عمر حسن البشير. وفي عام 1991، تجمع في السودان خليط غريب من الفارين من العدالة، والمجرمين، والمهاجرين، بمن فيهم شخصيات مشهورة مثل كارلوس المعروف بابن آوى، وأبي نضال، والشيخ الضرير عمر عبد الرحمن. وقامت خلايا تابعة للجماعات الإسلامية الرئيسة وممثلون عن أكثر الجماعات الإسلامية بفتح مكاتب لها في الخرطوم، بمن فيها حزب الله، والجهاد الإسلامي، وغيرها. وبعد انتقال ابن لادن إلى السودان عقب حرب الخليج الثانية [حرب تحرير الكويت]، شرع في إقامة المشروعات التجارية مثل مشروع تصدير السمسم، إضافة إلى مشروعات إنشائية مثل مشروع الطريق السريع بين الخرطوم

1- «K-Town»

وميناء السودان، وبدأ يجمع حوله نواة ما أصبح يعرف فيما بعد بمنظمة القاعدة. كما أقام معسكر تدريب في أم درمان على بعد خمسة عشر ميلاً من الخرطوم.

تمكن بيلي من رصد تحركات ابن لادن الاعتيادية وعاداته الشخصية. ويفكّر بيلي في الفرق الذي كان سيحدث لو سمح له بقتل ابن لادن في السنوات التي أمضاها في السودان. ورفع بيلي أصابعه وكأنه يمسك برصاصة للتأكيد على هذه النقطة: «قبل الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، كانت الغلبة للمحامين. لو أردت أن تتبوّل، كان عليك أن تستشير محامياً. كان الناس يرتعدون خوفاً؛ فلم يكن جورج تينيت حازماً في أي شيء، وكانت العقبة أمامه هي اللجنة النيابية المشرفة، وكان تينيت يرغب في فعل أشياء كثيرة لكنهم لم يسمحوا له بفعلها، ولو أردنا أن نقتل شخصاً ما، فإن علينا أن نحصل على موافقة الشيوخ والنواب».

كان بمقدورنا أن نقتل ابن لادن في عدد من الفرص لا يمكن إحصاؤها، وكنت أضع كل يوم خمس عشرة خطة مختلفة لقتله، وكانت فكرتنا تقوم على قتله ووضع جثته وراء جدار السفارة الإيرانية؛ كي نجعلهم في موقف سيئ، وعلى قدر ما كانوا عليه من تساهل في ضبط سفارتهم، فقد كان بإمكاننا أن نلقي به داخل جدار السفارة، وكنا سنلقيه هناك ثم نتصل بالسلطات السودانية لنقول لهم، «هيه، لقد وقع إطلاق نار في السفارة الإيرانية. أولى لكم أن تذهبوا إلى هناك وتلقوا نظرة على ما يحدث». لقد وضعت ذلك في إحدى الخطط؛ ولكنهم قالوا لي، «هل فقدت صوابك؟» غير أن شخصاً واحداً أحب هذه الفكرة من أول نظرة – وهذا الشخص هو كوفر بلاك. ولكن قيل له: إننا لن نفعل ذلك، ثم توقف بيلي برهة من الوقت، متحسراً على تلك الفرصة الضائعة. «كانت تكفي رصاصة واحدة ملعونة بكلفة عشرة سنتات».

كان هذا الحظر المطلق على الاغتيال وتنفيذ عمليات القتل دون محاكمة ساري المفعول حتى أواخر عام 1998، حين وقّع الرئيس بيل كلينتون – على إثر التفجيرات التي استهدفت السفارات الأمريكية شرق إفريقية– على سلسلة من الأوامر والمذكرات الرئاسية تسمح لوكالة الاستخبارات المركزية وعملائها باستخدام القوة القاتلة للقبض على ابن لادن وتقديمه للعدالة. ولم تتضمن تلك المذكرات أي أوامر مباشرة بقتل ابن لادن، لكنها صيغت بطريقة تنم عن القبول بالمخاطرة بقتله إذا وقع هذا القتل في حادث

عرضـي نتيجة لعملية خاطفة. وأصـدر كلينتون أربع مذكرات لتشمـل معاوني ابن لادن، غـير أن صياغـة تلك المذكرات كانت تؤكد على أن أي مهمة في هذا الصدد يجب أن تقوم علـى تقديم هؤلاء الأشخاص للمحاكمة، وليس إنهاء حياتهم. وكان الأمر المباشر بالقتل يستدعـي صدور مرسوم صريـح بالقتل، وهذا لم يحصل إلا بعـد هجمات الحادي عشر مـن أيلول/ سبتمبر؛ إذ أدى وقوع تلك الهجمات إلى إزالة العقبات القانونية أمام إصدار أوامر رئاسية تزيل الحظر الذي كان قائماً على استهداف الأشخاص بالاغتيال.

لم يخطـر ببال بيلي أن يمثّل ابن لادن خطراً أكثر أو أقل من الجماعات الأخرى، التي كانت موجودة في الخرطوم مع بداية تسعينيات القرن الماضي، ولم يتصوّر ألبتة أن أمنيته ستتحقـق (...)، وجاء 11 أيلـول/ سبتمبر، 2001 ليغير من وجهة النظر الأمريكية تجاه قبولها بقتل أعدائها.

«لقـد كنت في مبنـى وكالة الاستخبـارات المركزية صبيحة الحادي عشـر من أيلول/ سبتمـبر، في الطابق السادس للقيام بآخر تجهيزات سفـري إلى تايلاند في مهمة تتعلق بالمخـدرات. وصاح أحد الأشخاص الذين كانوا يراقبون شاشة التلفاز: «يا إلهي، انظروا إلى هذا الطيار الملعون .... لقد صدم بطائرته البناية». ثم جاءت طائرة ثانية وارتطمت بالبرج الثاني فأطلقت صفارات الإنذار[1]. وكان هناك طائرتان أخريان مفقودتان. وجاءت

1- تتطابق هذه الشهادة، وهي رؤية الطائرة الأولى وهي ترتطم ببرج التجارة العالمي في نيويورك صبيحة 11 أيلول/سبتمبر عبر شاشة التلفاز، مع الوصف الذي جاء على لسان الرئيس الأمريكي جورج بوش. في اجتماع جماهيري في مدينة أورلاندو بولاية فلوريدا في الرابع من كانون الأول/ ديسمبر من عام 2001، وذلك في معرض رده عن سؤال وجهه إليه طفل اسمه جوردن وطلب فيه من الرئيس أن يصف مشاعره حين علم بالهجمات، وقال بوش: إنَّ كان يقوم بزيارة لمدرسة ابتدائية في فلوريدا لتشجيع القراءة، وإنه شاهدها عبر شاشة التلفاز قبل دخوله غرفة الصف في المدرسة التي كان يزورها، الطائرة الأولى وهي ترتطم بالبرج، فكان أول ما خطر في باله أن الطيار الذي كان يقود الطائرة لا بد أنه كان طياراً لا يحسن الطيران. ثم دخلت الصف ....إلخ. والمشكلة التي تثيرها هاتان الشهادتان هي أن وسائل الإعلام الأمريكية لم تبث مشهد ارتطام الطائرة الأولى بالبرج إلا في اليوم اللاحق أي في 12 أيلول/ سبتمبر بخلاف الطائرة الثانية التي ارتطمت بالبرج الآخر بعد وصول كاميرات وسائل الإعلام لتصوير الحادثة الأولى ونقلت كاميرات وسائل الإعلام ارتطامها بالبرج. وهذه الشهادة، وكذلك شهادة بوش المطابقة لها تثير عدداً من الأسئلة والشكوك لا مجال لتناولها الآن، لكنني أحببت الإشارة إليها.

الأوامــر بإخلاء المبنى. ولم يسبــق لي أن شاهدت الوكالة تتحرك بتلــك السرعة، وليتك شاهــدت حركــة السير علــى الطريق السريــع 123. لقد كان الناس يســيرون بسرعة 90 ميلاً في الساعة خارجين من مقاطعة كولومبيا، وكان موظفو وكالة الاستخبارات المركزية يحاولون الخروج مع الخارجين في الزحمة. لقد كان الناس هناك يكرهون الوكالة. ولكنهم لا يعرفون شيئاً عن وكالة الاستخبارات المركزية. لم يكن لديهم علم بالأغلال التي كانت تقيد أيدينا، لم تكن وكالة الاستخبارات المركزية تقتل أحداً، ربما كانوا يشاهدون اختفاء بعض الناشطين من بني جلدتهم، لكن الحكومات الأخرى هي التي كانت تفعل ذلك، لقد كانــوا يلقون بالمسؤولية عن كثير من حــوادث القتل السرية على عاتق وكالة الاستخبارات المركزية، لكننا لم نكن نحن من يفعل ذلك».

في اليــوم اللاحــق، قــام رئيس قســم العمليات الخاصــة التابع لوكالــة الاستخبارات المركزيــة باستدعــاء بيلي وطلب منــه أن يبدأ بتجنيــد متعاقدين مستقلــين، لغرسهم في أفغانستــان للقيام بعمليات شبه عسكرية تستهدف ابــن لادن وأتباعه. «لقد حصل كوفر بــلاك على تلك الأوامر بعد اجتماع استغــرق ليلة كاملة في كامب ديفيد. توجه إلى هناك بالطائرة، وحين رجع من كامب ديفيد يمكنك أن تلحظ أن الأمور قد تغيرت تغيراً كاملاً. لقــد أرادوا قتل أنــاســ بعينهم، ولم يكونوا هذه المرة سيطلقون بعض الصواريخ على كومة من الرمال. بل أرادوا رؤية بعض الجثث على الأرض في الواقع المحسوس».

«السيّئ الخسيس الغشاش»

في منتصــف تشريــن الثــاني/ نوفمبر من عــام 2001، شــدّ بيلــي واه رحاله برفقة فريق من المتعاقديــن الأمنيين إلى طشقند في أوزبكستان، على متن طائرة نقل عسكرية عملاقــة. وكان بيلي يدرك وقتها أنه يخوض آخــر حرب، بل ربما آخر مهمة له في حياته المهنيــة. وبعمر ناهز واحــداً وسبعين عاماً، يكون بيلي أكــبر المتعاقدين الأمنيين سناً مع وكالــة الاستخبارات المركزية ممن لديهم خبرة في ساحــة المعركة. وكانت مهمة الفريق الــذي رافقه هــي البحث عن ابــن لادن ومعاونيه وقتلهــم. وكان لديهم توقعــات مُتَدَّنية بالنسبة للقبض عليهم أحياءً.

وقد قـام الرئيس بوش بالتوقيع على مرسوم رئاسي سـري يخوّل وكالة الاستخبارات المركزيـة قتـل ابن لادن وأعوانه؛ وحرصاً على إزالة أي لَبْس حول هذا الأمر، طلب كوفر بـلاك من غاري شروين، قائـد أول فريق للوكالة في أفغانسـتـان، أن يرسل إليه ابن لادن ميتـاً في صنـدوق. ويتذكر بيلي تلك الأيـام المحمومة في أيلول/ سبتمـبر: «لقد قال بوش للوكالـة، «أريد جثثاً». فـرد عليه كوفر بأنه سيجعل الذبـاب في عيونهم في غضون أسبوع من الزمان».

لقـد أجبرت فداحة هجمـات الحادي عشر من أيلول/ سبتمـبر الحكومة الأمريكية علـى إحـداث تغييرات جذرية في الأوامـر التي كانت سارية المفعـول منذ عهد كلينتون؛ لتسمـح باستخدام القوة القاتلة في العمليـات المصممة لإحضار ابن لادن أمام العدالة. وبحسـب ما يذكر بيلي، فـإن «بوش أعطانا رخصة للقتل. هل وقّـع رخصة القتل تلك؟ كلا، لكننا تلقينا تلك الرخصة مشافهة، وكان على المحامين أن يملؤوا النماذج والوثائق اللازمـة. ولا يمكن لأحد أن يـرى تلك الوثيقة. حتى مع تمتعـي شخصياً بأرفع درجات التصاريـح الأمنية الرسميـة من الدرجة الثالثة داخل الوكالـة، فإنني لا أتوقع أن أطلع على تلك الوثيقة طَوالَ حياتي».

لقـد قطـع جورج تينيـت وكوفر بـلاك علـى نفسيهما عهـداً للرئيس بوشـ، بأنهما سيتعقبان بفاعلية جماعة ابن لادن، ويطيحان بحركة طالبان عن طريق إرسال فرق من قسـم العمليات الخاصة التابع لوكالة الاستخبارات المركزية، ومن أفضل الفرق التابعة للقـوات الخاصـة. لكن المشكلة هي أنـه لم يكن لدى وكالة الاستخبـارات المركزية عدد كافٍ من الأفراد المدربين لتنفيذ ذلك الوعد؛ لذلك فقد لجأوا إلى رهطهم الذين أثبت الزمـن حسن وفائهم للوكالة: وهم المتعاقدون الأمنيون وجيوش المرتزقة الذين ينفذون المهمـات بالإنابة عنها. وقد استدعي ضابط عمليـات الوكالة غاري شروين من برنامج تحضـيري لتقاعده، وأرسل إلى وادي بانجشـير في أفغانستان؛ ليتولى تجنيد جيش من المرتزقـة أطلق عليه اسم تحالف الشمـال. وانتُدِبَ بيلي واه لمساعدة ضباط آخرين من الوكالة في تأليف مزيد من الفرق التي ستنضم إلى شروين وميليشياته التي تتولى تعقب ابن لادن داخل أفغانستان.

وفي عــام 2001، لم تكن هنــاك أي شركة أمريكية تتخصصــ حصراً بتزويد عاملين ذوي خبرة عسكرية، ولم يزدهر نشاط الشركات الأمنية الخاصة مثل شركة بلاك ووتر، وتربيــل كانوبي، وما شابهها من شــركات إلا بعد الانتشار العسكري الذي أعقب هجمات 11 أيلول/ سبتمبر -وفي العراق على وجه الخصوص- والذي أوجد سوقاً كبيرة لمثل هذه الخدمات. لذلك، وفي ظل عدم وجود شركات تقدم خدمات عسكرية تشابه الخدمات التي تقدمهــا شركات التوظيف التي تزود سوق العمل بالموظفين الذين يعملون بدوام جزئي أو بعقود، كان على بيلــي أن يعتمد على معارفه الشخصيين وعلى شبكة أصدقائه القدامى، واستطــاع أن يجمــع بعضــ أعضاء فريقه مــن العناصر العاملة في القــوات الخاصة، أما البقيــة فكانــوا من المتعهدين المستقلــين الذين سبق لهم أن خدمــوا في الجيش وكان على معرفــة بهم. «لقد كُلِّفــتُ بتجنيد ستة وأربعين رجلاً من منطقة فورت براغ- ستة وأربعين رجلاً»، كرر بيلي ذلك الرقم زيادة في التأكيد. «توجهت إلى قوات الدلتا وجمعت عشرين شخصــاً، ثم تمكنت من جمع عشــرة رجال آخرين ممن سبق لهــم أن خدموا في الدلتا. وحصلت على بعض الذين خدموا في قوات (سيل). وعدد آخر من الذين خدموا في قوات (سيــل) فريق 6. وثمة فرق كبير بين القــوات الخاصة وقوات (سيل). ولهذا السبب تجد أن كثــيراً منهم لا يرغبــون في الانخراط في هذا العمل. فهــم -أي الذين خدموا في قوات سيل- يريدون مهمات قصيرة الأجل، ولا يرغبون في المكث ستة شهور من السنة في مهمة ما؛ لذلك كنت أفضّل دوماً الانتقاء من القوات الخاصة، وكنت أريهم فيلماً ثم أسألهم إن كانوا يستطيعون القيام بأعمال تشبه ما شاهدوه في ذلك الفيلم، هل يستطيعون السباحة؟ ليســ السباحة وحسب؛ بــل وإطلاق النار من تحت الماء؟ هل يستطيعــون القيام بعمليات ليليّــة، والركضــ سبعة أميال؟ وذكّرتهــم أن الأكسجين في أفغانستــان يكون شحيحاً على ارتفــاع خمســة آلاف قدم. كما أنني أبحث عن المهــارات اللغوية في المتقدمين؛ وليس لدى قــوات سيل مَلَــكات لغوية. فكل ما يفعلونه هو اقتحام مكان مــا، وقتل من فيه من الناس، ثم كتابة تقرير عما حدث، والتحضير للمهمة اللاحقة. أما القوات الخاصة فينزعون إلى اقتحــام المكان والمكوث فيه؛ ولهذا السبب كنــا نفضل تجنيد أشخاص سبق لهم أن عملوا في القوات الخاصة».

ولا يخفي بيلي فخره بما حققه من إنجازات في مدة قصيرة: لقد أكملت تأليف الفريق؛ لأنني تحدثت إلى القائد جيري بويكن، وتمكنت من الحصول على عشرين أو واحد وعشرين. وهؤلاء الأفراد يحملون مؤهلات القفز المظلي من مرتفعات شاهقة، ويتمتعون ببنية جسدية قوية. وقد قبلوا جميعاً على الفور في العمل بصفة «غرير خضر» [أي بصفة «متعاقدين» مستقلين مع وكالة الاستخبارات المركزية]، وقد أخضعوا لفحص مصغر لكشف الكذب [البوليغراف]، وجرى استبعاد ثلاثة فقط من بين الثلاثين لأسباب تتعلق بتعاطي المخدرات، وكان علينا أن نتثبت من لياقتهم البدنية أولاً، فأخضعناهم لفحص اللياقة والتحمل، وكان أفضلُهم أداءً شخصاً تجاوز الستين من عمره وعمل لدى الوكالة أكثر من خمسة وأربعين عاماً. وبعد ثلاثة عقود من تقييد حركته، أصبح بيلي الآن جاهزاً للتوجه إلى أفغانستان واستغلال فرصته في قتل أخطر أعداء أمريكة.

وفي أثناء المراحل الأولى من الحرب في أفغانستان، نشرت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية زهاء ثمانين إلى مئة من الغرير الخضر [المتعهدين المستقلين] والغرير الزرق [الموظفين]. ونجح بيلي في جمع زهاء ستين عنصراً من المتعاقدين المستقلين والعسكريين؛ وجاء الباقون من قسم العمليات الخاصة التابع لوكالة الاستخبارات المركزية، وقد حملوا معهم كماً من النقود لشراء ولاء زعماء الحرب والتأثير في زعماء القبائل والقادة السياسيين، وجمع المعلومات حول مواقع العدو، والبحث عن أسامة بن لادن وأعوانه. وكان من مهماتهم استجواب السجناء، ورسم خريطة استخبارية للمنطقة، والتعامل مع الولاءات والتحالفات المتغيرة والمتحولة باستمرار بين المقاتلين الأفغان. وتمكن بيلي واه أن يقنع قيادته العليا في وكالة الاستخبارات المركزية أن بإمكانه تنسيقَ العمل والجهود بين ضباط الوكالة وبين فرق القوات الخاصة. وأهم نتيجة للإنجازات التي حققتها الوكالة والقوات الخاصة في أفغانستان هي فتح باب عهد جديد من العمل المشترك، بحيث تتضافر فيه جهود الجيش، والاستخبارات، والقوات شبه العسكرية، والسكان المحليين، والمرتزقة، وحتى المتعاقدين المدنيين نتج عنها قدرات فاعلة قاتلة لم يشهد بيلي مثيلاً لها منذ أيامه في كمبودية، ولاوس، وفيتنام.

وبعد قضاء أسبوع في طشقند لتنظيم أمور الإمدادات والدعم، طار فريق بيلي وهبطت طائرتهم في قاعدة بغرام العسكرية على مقربة من العاصمة كابول، ثم توجهوا إلى فندق

أرينا، وكان جهاز الاستخبارات التابع لطالبان يستخدم هذا الفندق قاعدة له، لكن وبعد ذهـاب طالبان، اتخذت وكالـة الاستخبارات المركزية من ذلك الفنـدق مركزاً لعملياتها في أفغانستـان. كانت أدوات بيلي في هذه المهمة تضم أدوات عالية التقنية وأخرى بدائية؛ إذ جلـب معـه حقيبة ظهـر فيها ملابس ومعـدات تناسب الجو البـارد، وبندقية إي كي - 47 وسبعة مخازن للذخيرة، وعدداً كبيراً من القنابل اليدوية، وقاذفة قنابل من نوع إتش آنـد كي عيار 40 ملـم. وكان يحمل معه أيضاً جهاز راديو للطـوارئ من نوع إي آن/بي آر سـي 112، وآلة تصوير رقمية، وجهاز يدوي لتحديـد الموقع عن طريق الأقمار الصناعية (GPS)، وبوصلـة قديمـة، ومديـة ذات يد عظمية من نـوع أولد تايمـر، وكان يحمل معه كذلك بضعة آلاف من الدولارات في جيبه لمصروفه الخاص.

وفي الأول مـن كانـون الأول/ ديسمبر، الذي كان يصادف عيد ميـلاده الثاني والسبعين، توجـه بيلـي برفقة فريقه الصغير من المتعاقدين المستقلـين جنوباً، عن طريق البر من فندق أرينـا، ومعهم مجموعـة من الحرس الشخصيـين الجدد الذين جرى توظيفهـم قريباً. وقد أعطـي فريق وكالـة الاستخبارات المركزية أمـوالاً لتوظيف آلاف مـن المقاتلين المحليين حين يقتربـون مـن نقطة هدفهـم في مقاطعة لوغار الجنوبيـة، حيث كانوا على موعـد مع مفرزة عمليـات ألفـا من القوات الخاصة 594، وهي المفرزة التي ستتـولى تدريب المتعاقدين الجدد لخوض المعارك وتقديم عمليات الدعم. وتتألف مفرزة عمليات ألفا من القوات الخاصة من فريق مكون من اثني عشر شخصاً، إضافة إلى مجموعة سيطرة جوية تكتيكية (TACT - P) وذلـك لتنسيق الغارات الجوية. وكانت إحـدى مهمات بيلي هي التيقن من عدم خلط القوات الخاصة بين الأهداف حتى لا يجري ضرب الأصدقاء الأفغان عن طريق الخطأ.

وبعـد تحديد الأهـداف، يجري التثبت من عدم وجود أي قـوات صديقة أو مدنيين في المنطقـة، ثم التيقن من عدم وجود تعارض أو خلط بين الوحدات الأخرى، وأخيراً تصدر الموافقة على القتل، ثم تستدعى الطائرات القاذفة التي تستخدم ذخيرة الهجوم المباشر المشتركة (JDAM[1])، القنابل الذكية، وتحدد أهدافها عن طريق مُنَاظِر تحديد إحداثيات

1- آلـة توجيـه تربط بالقنابـل الصماء فتحولها إلى قنابل ذكيـة، وهذه العبارة هي اختصـار لكلمة (Joint Direct Attack Munition).

موقــع الأهــداف، أو باستخدام منظــار ذي مؤشر ليزري يسمى سوفــلام (SOFLAM) (المُحدد الليزري لقوات العمليات الخاصة)، أو عن طريق «مخاطبة الطيار عبر الراديو» - بإعطائــه سلسلة من المحددات المرئية لمساعدته في تحديد الهدف بدقة. تثبت صواريخ هيــل فايــر (نار جهنم) على متن طائــرة بريديتر يو إي في (طائــرة دون طيار تسيرّ عن بعد)، وتعطــى الرخصة للقتل عن بُعد للأشخاص الذين يديرون أجهزة التحكم من بعد لتلــك الطائــرات مستخدمــين ذراع قيادة وأزرار إطــلاق النار كالتي تستخــدم في ألعاب الفيديــو. وكان ذلــك كله يجري عبر موجــات الراديو، ويجلس الرجــل الذي يضغط على أزرار إطــلاق النــار في عربة مقطورة للقيادة مزودة بمكيف تبريــد هوائي على بعد آلاف الأميال.

ومع أن تلك القوات كانت جاهزة لتقديم تنسيق فاعل لغارات جوية على أهداف معينة بدقــة، إلا أن بيلــي لم يكن يشعــر أنهم كانوا يتمتعون بالدعم الــكافي، ذلك أن أكثر القوة الجويــة الأمريكية كانت مركزة في مقاطعــة باكتيا: «لقد أمضينا هناك عشرين يوماً، ثم تحولنا إلى غارديز. لم تكن طالبان تدري ما يدور حولها، ولم نحصل على التغطية الجوية المبتغــاة، فقــد كانت القــوة الجوية في تورا بــورا، ولم يكن بمقدورنا القيــام بالمعركة على الوجه الذي كنا نرغب فيه».

ومــن حسن الحــظ أنه لم تكن هنــاك حاجة إلى معــارك طاحنــة؛ لأن طالبان كانت تنسحــب بسرعــة في طول البلاد وعرضهــا دون إبداء أي مقاومة، وقــد فروا من غارديز حين دخل بيلي وفريقه في قافلة عسكرية تضم خمساً وعشرين مركبة في الرابع من ينــاير، عام 2002، وأخذوا مواقعهم في مجمع للمباني شرقي المدينة. وكانت مهمتهم تتلخص في تشكيــل مــا أطلق عليــه «التحالف الشرقي» لقــوات المرتزقة، على الرغــم من عدم وجود شيء من هذا القبيل. أما المهمة الأخرى فكانت جمع أكبر قدر من المعلومات الاستخبارية بأســرع وقت ممكن- أي إقامة شبكة من المخبرين من المواطنين المحليين، وإلقاء القبض علــى أنصار طالبــان ومطاردتهم بعــد أن يحددهم لهــم الجواسيــس المستأجرون. وقد أقامــت مجموعة بيلي مركزاً لهم في تجمع للمباني محاط بجدار من الطين، وأصدر بيلي

أوامــره لحرَّاسٍ من الأفغان بتهديد أي شخص من وسائـل الإعلام يحاول الاقتراب من مسافة ثلاثة كيلومترات.

كان الممــر الجبلــي بين غارديز وخوست يعج بعناصر طالبــان، وبدأ فريق بيلي بتعقب واصطيــاد مجموعات مــن المقاتلين، واستخدموا في تلك المهمــة أجهزة اعتراض موجات الهاتف لتحديد مواقع تلك المجموعات، إضافة إلى طائرات بريدترز التي تعمل دون طيار وتوجّــه من بعد والمــزودة بأجهزة رؤية ليلية، والعناصر المنشقة عــن طالبان، إضافة إلى أحــدث أجهزة الاستطلاع والمراقبة التــي تلتقط صوراً بالأشعة تحــت الحمراء. وأمضى فريــق أو دي إي 594 أوقاتهم في تدريب الأفغان المتعاونين معهم على استخدام الأسلحة، والمدفعيــة، وبعضــ التكتيكات الخاصــة بالمجموعات الصغيرة. أما أوقــات الفراغ فكانوا يستمعــون فيها إلى قصص بيلي حول كمبوديا ولاوس في عهدها المزدهر حين كانت وكالة الاستخبــارات المركزية تعمل مباشــرة مع القوات الخاصة وحين كانــت ملاحقة الأعداء وقتلهم عن طريق جيوش المرتزقة هو الإجراء الاعتيادي المتبع.

وبدخــول الخامــس عشر مــن كانون الثاني/ ينايــر، وصل عدد القــوات الأفغانية التي تقاتل نيابة عن الولايات المتحدة زهاء ثلاث مئة أفغاني، وقدم الجنرال لودين - وهو قائد بشتوني عمل مع وكالة الاستخبارات المركزية في الثمانينيات، ابنه متطوعاً للعمل مع القوة الأمريكية، وجاء ابنه برفقة ثلاثين من أصدقائه. «إن من الصعب الحصول على معلومات جيــدة من زعماء الحرب الأفغان الأفاكين أبنــاء الفاعلة. لقد كنا نتعامل مع مجموعة من الكذابين الطغام، وكان ذاك الرجل العجوز [الجنرال] لودين هو زعيم المنطقة، وكان ولده ضياء لودين يعمل برتبة نقيب لدينا، وكان في منتهى الصراحة حول دوافعه: «إنني هنا من أجل المال، وأنا لا أحب الأشخاص الموجودين في بانجشير[1] ولا أحب سوى أبناء قبيلتي».

وقــام زعماء القبائل في غارديز بتقديم زهــاء مئة من الرجال، واثنين من القادة هما كبــير وضياء عبد الله، وكانا على رأس كتيبــة من مئة وسبعين من المقاتلين. ويصف بيلي

1- عاصمة إقليم باكتيكا في أفغانستان.

القائـد ضيـاء عبد الله بأنه سيئ خسيس غشاش، وهو مـن حلفاء أمريكة، قد تلقى كثير مـن الأمـوال، وهو شخص لا يمكـن الوثوق به بأي حال من الأحوال. وبـدأ الأفغان الذين يعملـون تحت قيادة كبير من فورهم بالتصرف على نحو يثير الريبة والشك، وشعر فريق بيلي بالخطر يحيط بهم.

كان بيلـي يحسن التعامل مـع المجرمين وزعماء الحرب، غير أنه بات واضحاً أنهم لن يتمكنـوا من القبض على ابن لادن في هذا العـالم الداجي القاتم من الـولاءات المتحوّلة والمتقلبة والمزدوجة. وتقول وكالة الاستخبارات المركزية: إنها وزعت زهاء 70 مليون دولار علـى زعمـاء الحرب والقبائل لتأمين الفوز في المراحل الأوليـة من الحرب في أفغانستان، وهي ترى ذلك صفقة رابحة على الرغم من أن الولاء الذي اشتري بتلك الأموال لم يفض إلى قتل ابن لادن أو القبض عليه ولا حتى على أعوانه المقربين.

كان من بين الأفغان الذين وظفتهم وكالة الاستخبارات المركزية وتولّت القوات الخاصة تدريبهـم شخصان همـا: زاحم خان وباشا خان زدران، وهما مـن زعماء الحرب الذين تبـدو عليهم هيئة قطّاع الطرق، وقد أقدم هذان الشخصان على طلب القيام بغارة جوية تستهدف وفداً من زعماء قبائل البشتون كانوا في طريقهم لتهنئة حامد كرازاي في كابول. وكانـت تلك المخادعـة وأصناف المخاتلة والنفـاق هي السمة المميزة لعمـلاء أمريكة من الأفغـان الذين كانوا يحرصون على انفلات المجاهدين العرب، والباكستانيين، والأوزبك، من قبضة الأمريكيين، وعلى عرقلة جهود العثور على ابن لادن.

ويتذكـر بيلي المشقـة التي لقيها في أفغانستان، إلا أن أفضـل ذكرياته تبقى مع الجيل الجديد من المتعاقدين الأمنيين والقوات شبه العسكرية الذين عرفهم هناك. ما لاحظته هـو أن هـؤلاء الناشئة من القـوات شبه العسكرية هـم أكثر قوة، وأفضـل تدريباً، وأقدر علـى التواصـل، وأفضل تجهيـزاً، ويتعاملـون بإخلاص ومن غير مواربـة، ويتفوقون على أقرانهـم من المدرسة القديمة... ولكن استقلاليتهم في اتخاذ القرار في الميدان أصبحت شبـه منعدمة؛ فوسائل الاتصال هذه الأيام هي في غاية الفاعلية، وتنساب القرارات عبر السلم القيادي بكل سهولة ويسر.

في أيامي الأولى قبل توافر أجهزة اللاسلكي المتقدمة وتقنية الاتصالات الدقيقة، كانت القرارات تصدر عن القادة الميدانيين على الأرض دون أي خوف من غضب القيادات العليا التي تبعد مئات الأميال عن ساحة الوغى.

ومما زاد من خيبة أمل بيلي، أن المدة التي أمضاها في أفغانستان لم تضعه وجهاً لوجه مع خصمه القديم، أسامة بن لادن. وقد تبين أن المواطنين المحليين الذين عملوا معه كانوا أكثرَ حرصاً على أخذ ماله وأشدّ تلكؤاً في تعقب العدو، وكان يؤثر حرارة غابات كمبوديا على برودة جبال أفغانستان التي كانت تثير الألم في مفاصله إذْ نال منه الوهن، وبدأ يفكر أنه -كما قال هو-: قد بلغ من الشيخوخة حداً يجعله غير مؤهل لهذا الأمر. وبعد أن أمضى شهرين في أفغانستان، آن أوان بيلي واه؛ لأن يقول: وداعاً لفريق أو دي أي 594، ليقصدَ موطنه في منتصف شهر كانون الثاني/ يناير، وسيتولى شخص آخر مَهمةَ القبض على خصم بيلي اللدود.

بداية عهد بلاك ووتر

بدأ استخدام المتعاقدين المستقلين في الحرب على الإرهاب مع السبعين شخصاً الذين جندهم بيلي واه؛ إذ شكلوا قوة شبه عسكرية ذات غرض محدد، مؤلفة من جنود سابقين ذوي مراس وخبرة، وتتمتع بتسليح جيد، وسرعة في الانتشار. وقد أدت هذه القوة دوراً حيوياً في مساعدة الدفاعات الأمريكية على التكيّف مع الظروف غير التقليدية؛ وبذلك تكون الولايات المتحدة قد عهدت بالمسؤولية عن بعض جوانب الحرب على الإرهاب إلى المتقاعدين العسكريين والمرتزقة من المواطنين المحليين، كما سبق لها أن فعلت في لاوس وغيرها من الصراعات التي خاضتها سراً. وبعد القضاء على طالبان، عملت الولايات المتحدة على إقامة شبكة استخبارية واسعة في أفغانستان وباكستان للمساعدة في القبض على ابن لادن وفلول القاعدة وطالبان. وقد كان قرار وكالة الاستخبارات المركزية في استخدام شركة خاصة لتعزيز فرق الحماية الشخصية للضباط التابعين للوكالة عاملاً محفزاً لقيام شركة بلاك ووتر بأول محاولة لخوض غمار صناعة الأمن الخاصة. وكان العقد الأولي -الذي بلغت قيمته 5.4 ملايين دولار ومدته ستة شهور- بداية تحوّل شركة بلاك ووتر من مجرد مصنع خفيف للصُّلب، وأهداف الرماية إلى شركة عملاقة في مجال الأمن.

قبـل الحادي عشر من سبتمبر، كان إريك برنس يسعى جاهداً لجعل نشاطه التجاري يـدر ربحـاً. ومع أن برنس نشـأ في عالم من التوسـع التجاري واندماج الشـركات، إلا أن النمـوذج الأصلي الذي بنيت عليه بلاك ووتر كان موجهاً لتحقيق اهتمامات وميول برنس أكـثر منه لتحقيـق الأرباح. وفي عام 1997، بـدأ إيريك العمل في بنـاء مركز بلاك ووتر للتدريب على قطعة أرض تبلغ مساحتها ستة آلاف آكر، وفيها ميدان للتدريب على إطلاق النـار مصمم لتقديم تدريب متخصص لأفراد الجيش والشرطة، ولقد كان نمو نشاطه بطيئـاً. ومنذ عام 1998 حتى عام 2000، لم يعمل في دائرة التدريب سوى ستة موظفين، وكان برنس يلجأ بين الحين والآخر إلى أخذ المال من جيبه الخاص لدفع رواتب الموظفين. وفي عـام 2001، بدأ برنس بإنتاج أنظمة أهـداف بلاك ووتر؛ وهي أهداف معدنية تتميز بخاصية إعادة التنضيد الذاتي، فنجح في تحقيق بعض الأرباح، غير أن ظروف العمل لم تكـن مواتية تماماً حين اقترح عليه جيمي سميث، أحـد أوائل الذين بدؤوا العمل معه، أن ينشئ قسماً جديداً متخصصاً بتقديم خدمات الحراسة والأمن.

يملك سميث خبرة سابقة من عمله مع وكالة الاستخبارات المركزية، وكان يعمل مدرباً في بلاك ووتر بين الحين والآخر لتأمين رسوم دراسته الجامعية في كلية القانون، ثم أنهى عمله في بـلاك ووتر بعد تخرجه ليبـدأ ممارسة مهنته محامياً متخصصـاً في قضايا الضرائب عـام 2001. وكان برنـس يرغب في استبقائه موظفاً لديه، غـير أن سميث كان لديه تصور أكـبر. لقد رأى سميث سوقاً جديدة في توظيف رجال مدربين على نمط الحرس الشخصي الذي يرافق كبـار الشخصيات في وزارة الخارجية الأمريكية، وأراد سميث أن ينشئ قسماً خاصاً لهذه الخدمة بحيث يكون لديها قابلية للنماء والتوسع. ولم يتحرك برنس لدعم هذه الفكـرة دعماً كاملاً إلا بعد وقوع هجمـات 11 أيلول/ سبتمبر. واستدعى سيمث في تشرين الثـاني/ نوفمـبر من عـام 2001 ليعرض عليـه منصب نائب رئيس في شركـة بلاك ووتر، وبحلـول شهر كانون الثاني/ يناير من عام 2002، انتقـل سيمث إلى المقر الرئيس للشركة في مويوك بولاية نورث كارولينا.

وفي ظـل انعدام سبب لتدريب قوة من المتعاقدين الأمنيين قبل تأمين عمل لهم، اقترح سميـث البَدْءَ بمحاولة طرق باب معارفَ وأصدقـاء بحثاً عن فرصة. وأخبر إريك سميث

أن صديقاً له ممن انضموا إلى وكالة الاستخبارات المركزية قريباً يمكن أن يكون في موقع مُواتٍ في دفع خطتهما إلى الأمام. وهذا الصديق هو بَزّي كرونغارد الذي عيّن في منصب المدير التنفيذي لوكالة الاستخبارات المركزية في آذار/ مارس من عام 2001. وكان يعمل قبلها مستشاراً لمدير الوكالة بضع سنوات، غير أن خلفيته المهنية الفعلية هي في مجال الاستثمارات المصرفية، وقد عرف إريك والثروة التي تعود لأسرة برنس حين كان يعمل في هذا الحقل.

جاء توقيت الحركة التي أقدم عليها إريك إما بمحض المصادفة أو وفق حسابات مدروسة؛ لأن المخصصاتِ الأمنيةَ لوكالة الاستخبارات المركزية قد تعرضت بعدها للتقليص. وبعد ستة أشهر من هجمات 11 أيلول/ سبتمبر، كان موظفو قسم الرد الأمني العالمي التابع للوكالة يعملون فوق طاقتهم، وكانوا بحاجة ماسة إلى توفير الحماية للمحطة الجديدة التي أقاموها في كابول، وقد سبق لوكالة الاستخبارات المركزية أن تعاقدت مع شركات لتأمين الاحتياجات السرية من قبل، غير أنها قلما عهدت إلى شركات خاصة القيام بالمهمة التي يتولاها ضباطها في الميدان. وبعد الاتصال الذي أجراه برنس مع الوكالة بحثاً عن فرص لمشروعه التجاري الجديد، استطاعت بلاك ووتر تأمين عقد بقيمة 5.4 ملايين دولار مُدّته ستة أشهر. وقد صنف العقد تحت فصل الضرورة الملحة والطارئة في ميزانية الوكالة. وهذه الصفة «الملحة والطارئة» تلغي متطلبات الإعلان عن الخدمة والتقدم بمناقصات تنافسية من الشركات الأخرى؛ لذلك جرى إحالة هذا العقد مباشرة وفوراً إلى بلاك ووتر.

تطلب العقد «الأسود»[1] الذي منحته وكالة الاستخبارات المركزية لشركة بلاك ووتر ثمانية عشر متعهداً أمنياً إضافة إلى قائد أو قائدين. ومع أن العمل سيكون محفوفاً بالمخاطر، إلا أن بلاك ووتر والمتعهدين الأمنيين المستقلين، الذين استخدمهم برنس كان لديهم ما يكفي من المحفزات المالية لخوض تلك المخاطرة المحسوبة. وقاس جيمي سميث الأجر الذي تتقاضاه بلاك ووتر من وكالة الاستخبارات المركزية على الأجر الذي

1- يشار إلى أن بلاك ووتر تعني الماء الأسود، ومن معاني السواد في اللغة الإنجليزية «السرية»، وقد وضع المؤلف كلمة أسود بين قوسين للإشارة إلى المهمة السرية التي ستتولاها شركة بلاك ووتر، مع الإشارة إلى اسم الشركة.

تتقاضـاه شركة دينكورب مـن وزارة الخارجية للقيام بعمل مشابـه فوجد أنَّ بلاك ووتر تدفـع للمتعهديـن أجراً مقـداره 550 دولاراً في اليوم، وهو أجر يزيـد قليلاً على ما تدفع للمدربـين في مويوك - غـير أن بلاك ووتر تتقاضى من وكالـة الاستخبارات مبلغ 1.500 دولار عن كل رجل في اليوم. وسبب هذه الزيادة البالغة ثلاثة أضعاف هو إدخال مصاريف التدريب، والنقل، وغيرها، ومع ذلك يبقى فيها مجال واسع للربح. ويمكن للمتعاقد الفرد أن يحصـل على أجـر قدره 18.500 دولار شهرياً، في حين أن بلاك ووتر تحصل منه على 30.000 دولار في الشهـر مضروبـاً بعـدد المتعاقدين ليصل المجمـوع إلى 900.000 دولار في الشهـر. ومـع أن هذا العقـد كان عقداً صغيراً نسبياً، إلا أنه يظهـر أن بإمكان القطاع الخاص تعزيزُ قدراتـه في وقت الحاجة. وفي غضون ثلاث سنـوات، نمت بلاك ووتر من هـذه الوظيفة المحددة لتحتل المرتبة الثانية من حيـث الحجم من بين الشركات الخاصة التي تقدم خدمات أمنية، بعائدات تصل إلى ثلاثة أرباع مليار دولار في العام.

في الوقت الذي فاز فيه بعقده الأول مع وكالة الاستخبارات المركزية، كان إيريك يعاني مـن مشكلة وحيدة: أن إمبراطوريته الأمنية تتكون من شخصين فقط هو وجيمي سميث. أدرج سميـث إعلاناً في صحيفة واشنطن بوست ضمن قسم التوظيف، وعمل الاثنان بكل ما أوتيا من قوة في تأليف فريقهم الأول. وكانت المتطلبات الأساسية للعمل في هذا الفريق هـي: حصـول المتقدم على تصريـح الاطلاع على مستـوى (سي إس آي) مـن المعلومات السريـة، والخـبرة في العمـل في محيط معـاد، والإحاطـة بالمتطلبات الصارمـة لتدريب الحراسـ الشخصيـين في وزارة الخارجيـة. وفي غضون أسابيع، تمكنـت بلاك ووتر من توظيـف، وفحص، وتدريب عدد كافٍ من المتقدمين لتنفيـذ العقد الذي أبرمته مع وكالة الاستخبارات المركزية.

توجـه الفريق الجديـد إلى أفغانستـان في شهر أيـار/ مايو من عـام 2002، وحطت طائرتهـم في قاعـدة بغرام الجوية. وتوجـه إريك برنس - مالك شركـة بلاك ووتر، وهو أيضاً رئيسهـا التنفيذي - إلى أفغانستان وأمضى أسبوعين هناك، ظاهرياً ليعمل بصفة متعهـد، مع أن سميث وصف رحلة إريك القصيرة بأنها أقرب إلى أداء دور شبه عسكري لوكالة الاستخبارات المركزية.

كان على أكثر الفريق المكث في العاصمة الأفغانية طَوالَ مدة العقد، لتقديم الأمن والحماية للجزء الذي خصصته وكالة الاستخبارات المركزية لعملياتها من مطار كابول ولمركز عملياتها في فندق أرينا في كابول. وكانت وظيفة الفريق التابع لبلاك ووتر بصفتهم جزءاً من أركان الرد العالمي -وهو وصف تطلقه وكالة الاستخبارات المركزية على الاحتياطات الأمنية المشددة التي تتطلبها للعمل في المناطق المعادية- هي حماية المباني وضمان سلامة تنقل ضباط الاستخبارات إلى الاجتماعات بأمان والعودة. وأرسل أحد من المتعاقدين للمساعدة في مهمة محددة وجيزة في منطقة هيرات، وطلبت الوكالة أن يتمركز اثنان من المتعاقدين في مركز حدودي صغير في بلدة شكن لحماية ضباط الوكالة الذين يعقدون اجتماعات سرية مع زعماء القبائل في المنطقة. وطار جيمي سميث برفقة إريك جنوباً من كابول لتنفيذ العقد في شكن. وكان على سميث أن يمكث شهرين، أما إريك فغادر القلعة المبنية من الطين بعد أسبوع عائداً إلى كابول ليتحدث إلى المسؤول عن عمليات الوكالة هناك.

تتجه رحلة الطائرة المروحية إلى شكن باتجاه الجنوب من كابول، ثم ترتفع عشرة آلاف قدم لتجتاز السلسلة الجبلية التي اشتهرت بعد عملية أناكندة، ثم تهبط متخطية مجمعاً كان يستخدمه أسامة بن لادن في السابق لتحط في قلعة يطلق عليها بعضهم قلعة أباتشي، وهي قلعة كبيرة مبنية من الطين على مساحة قاتمة مغطاة بالغبار في مدينة شكن على بعد ثلاثة أميال من الحدود الباكستانية. وتُعَدُّ وكالة الاستخبارات المركزية هذه المنطقة «منطقة هندية»[1] واختارت هذه النقطة بالذات؛ لأنها أبعدُ نقطةٍ يمكن أن تصلها طائرة

1- ليست النسبة هنا إلى الهند الدولة المعروفة، بل إلى الهنود الحمر. والمناطق الهندية في الأصل هي المناطق التي حددتها الحكومة الأمريكية لإقامة الهنود الحمر الذين أجبروا على ترك مساكنهم وقراهم عام 1834. وأعطيت خمس قبائل متمدنة -وسميت متمدنة؛ لأنها كانت تتبنى نمطاً غربياً في الحياة والتجارة تمييزاً لها عن القبائل الهندية الأخرى التي تمسكت بعاداتها الأصلية- من الهنود الحمر التي منحت شبه حكم ذاتي مع احتفاظ الحكومة الأمريكية بالسيادة عليها. ولكن حالهم لم تدم طويلاً؛ إذ تلاشت هذه المناطق بعد الحرب الأهلية الأمريكية، وزحف مستعمرات السكان الجدد إلى أن ضمت بقيتها الباقية إلى ولاية أوكلاهوما، ولم يعد للهنود الحمر فيها عين ولا أثر. ووجه الشبه في هذا التشبيه هو الحكم الذاتي للقبائل الأفغانية في تلك المناطق مع بقاء السيادة عليها للأمريكيين.

مـي 17- بيغاسيس من بغـرام، وتعود دون الحاجـة إلى التزود بالوقـود. والسبب الآخر لشهـرة (شكن) هـو أنها أول قاعدة للمدفعيـة الأمريكية تقام بعد حـرب فيتنام. ويوفر فصيـل من قوات الرينجـرز القوة النارية ويقومـون بمهمة الحراسـة الليلية، ويعمل من تلـك القاعدة كتيبة (أو دي إي) التابعة للقوات الخاصة، وقوة الرينجرز، وفريق صاعقة بريطـاني، وقوات من الدلتا، ينطلقون مـن تلك القاعدة في مهمة مشتركة تسمى الوحدة الحربيـة رقم -11 ومهمة هذه المجموعة هي البحث عن ابن لادن، وقلب الدين حكمتيار، والملا عمر، وغيرهم من الأهداف النفيسة، ومع تواتر الشائعات عن تنقل ابن لادن بحرية بين الحدود الباكستانية الأفغانية في المناطق القبلية، ازداد التوتر في تلك القاعدة.

ومع أن قلعة الأباتشـي كانت أبعدَ القواعدِ العسكرية الأمريكيةِ وأكثرَها عزلة، وكانت تتعرض لهجمـات الأعـداء الذيـن كانـوا يباغتونها ثم يعـودون مسرعين عـبر الحدود الباكستانيـة، إلا أن الجنود في الحصن كانوا يمضون وقتهم في أداء التمارين الرياضية، وتدبـير شؤون المنزل، والاستلقاء تحـت أشعة الشمس. وحين كانت تأتي إخبارية من أحد الجواسيـس المحليـين، ينطلق المتعهدون لتحديـد مكان آمن للاجتمـاع - يكون في العادة ممـراً مغلقـاً مؤدياً إلى نبع ناضب، حيث يمكن لشخص أن يراقب الطريق من على رابية مرتفعـة فيما يغلق الآخرون المدخل، ثم يتوجه الضابط المعني بالأمر بصحبة مترجمه في السيـارة إلى المكان المخصصـ لأخذ المعلومات ودفع المقابل، وحين يقترب المخبر المحلي، يخرج المتعهد الذي يغلق الطريق لتفتيشه، وبعد ذلك يرسله إلى الاجتماع.

ومـن حسن الحـظ أن أكثر العمل يجري على نحو اعتيادي، غـير أن الشعور الضمني بكون المرء يحيط به ويراقبه عدو غير عادي، لا يمكن التنبؤ بأفعاله، غير مرئي، متقلب، متغـير، لا شـكل له، كل ذلك يجعل من قدرة التحمل العقلية التي يتطلبها هذا العمل أمراً صعبـاً. واكتشـف إريك وجيمي فوراً أنـه لا يمكنهما الوثوق بالسـكان المحليين، ولا يمكن افتراض صحة أي شيء يأتي من طرفهم، وأن عليهـم ألا يضعوا أسلحتهم وألا يتساهلوا في مستـوى الحيطة والحذر تحت أي ظرف من الظروف؛ لأن الأحداث يمكن أن تتغيّر في أثنـاء ثوانٍ معدودة. وقبل وصولهما إلى شكن بوقت قصـير، تعرضت قافلة تابعة للقوات الخاصة لكمين ذهب بحياة ضابط الاتصالات، وكان من الواضح أن الدليلَ الأفغانيَّ خان

المجموعـة؛ لأن العربـة الأمامية للقافلة التي كان يستقلهـا الدليل لم تتعرض للإصابة في حين أن باقي العربات رشقت بنيران الكلاشنكوف.

في هـذه البيئـة المشبعـة بالشك والخـوف والارتياب، بقيـت المجموعـة متحفزة على أعصابهـا، وأخذت الأوهـام تنتشر في عقولهم. ويتذكر جيمي، أنـه في أحد الأيام، بينما كان يقـوم بعمليـة استطلاع لتحديـد نقطة للالتقاء؛ فيقـول: كنا نسـوق عربتنا في أكثر الشـوارع اغبراراً على وجـه الأرض، كان ذلك الغبار أشبهَ شـيء بمسحوق بودرة الطلق، وكان كثيفـاً في الهـواء لدرجة أنني اضطررت إلى التوقف أكـثر من مرة لعدم تمكني من رؤيـة الطريق أمامي. وحين كنا على الطريق القـديم، رأيت ثلاث حافلات من نوع تويوتا مملـوءة بالرجـال المدججين بالسلاح تسـير صوبنا مستخدمـين شارعاً جديـداً موازياً للشـارع الـذي كنا نسير فيه؛ فقمنا بالالتفـاف حول زاوية تغطيها بناية ثـم أمعنا النظر حولنـا لنرى حافلات التويوتا، فلم نجد لها أثراً. لم يكونوا سراباً، ولا يمكن أن يكونوا قد اختفَـوْا فجـأة عن وجه الأرض، وكان من غير المعقول أنهم لم يهاجمونا. إنها أفغانستان، لا شيءَ فيها يسير بحسب العقل.

أمضـى سميـث مدة العقد كاملـة في أفغانستـان، شهرين منها في شكـن، والبقية في كابـول. أما إريك، فمع قصـر المدة التي أمضاها هنـاك، إلا أنها بعثت فيه نشاطاً وحيوية. وقـد أحـب بيئة الخديعـة والإثـارة إلى حد دفع هذا الشـاب -الذي مـا زال في منتصف ثلاثينيـات عمره، الذي يتولى إدارة ثـروة أسرة برنس- إلى التفكير بالانضمام إلى قسم العمليات الخاصة التابع لوكالة الاستخبارات المركزية والولوج إلى عالم العمليات السرية ضمن القوات شبه العسكرية.

قـد يستغرق الالتحاق بوكالة الاستخبـارات المركزية عدة شهور، غير أن عملية إجراء المقابلات المطوّلة والشاقة في العادة لا بد أنها سرّعت لمصلحة برنس. وبحلول شهر تموز/ يوليو، طلب إريك من سميث أن يقدم له النصيحة بشأن اجتياز فحص البوليغراف لكشف الكـذب - وهو العقبة الأخيرة التـي يجب أن يجتازها أي متقدم يسعى إلى الحصول على عمـل مع الوكالة. كانت نتيجة الفحص الأول الذي أجراه إريك «غير حاسمة»، فكان عليه أن يعيـد الفحص. ونصحه سميث بأن هنـاك عـدداً من العوامل التي يمكن أن تكون وراء

تلك النتيجة، ورأى أنها ربما تكون بسبب حالته العصبية. وعلى الرغم من أن إريك قد سبق له أن عمل مع الوكالة بفاعلية في عمليات سرية بصفة متعاقد، فإنه في النهاية يمكن أن يمنع من العمل بصفة «غرير أزرق» (موظف رسمي) إذ كان يفتقد بعض المهارات الأساسية. بعد هذا عاد إريك ليركز على إنماء شركة بلاك ووتر والنهوض بها.

لم يجدد عقد إيريك برنس الأول بعد انقضاء مدة الشهور الستة، وكان السبب الذي قدمه المسؤولون الحكوميون هو أن بلاك ووتر لم تستطع الاحتفاظ بأعداد كافية من المستخدمين بحسب شروط العقد، ومع ذلك انتشرت شائعات في أوساط صناعة الأمن أن وكالة الاستخبارات المركزية اكتشفت وجود تعارض في المصالح فيما يخص بزي كرونغارد. ومع ذلك لم يكن لهذه الخسارة أي آثار سلبية طويلة المدى على عمل بلاك ووتر؛ لأنها وكما يذكر الرئيس الجديد للشركة غاري جاكسون، قد استقرت على نمط يقضي بأن تقوم بقرابة 15% من نشاطها في عقود «سوداء» - ويفترض أنها مع وكالة الاستخبارات المركزية- وفي هذه الأيام فإن تلك النسبة تعني دخلاً سنوياً يقارب 100 مليون دولار للشركة.

يمكن عدّ أول عقد بين وكالة الاستخبارات المركزية والشركة أنّه أول نقطة تحوّل تشير إلى الاتجاه الذي تسير فيه صناعة الأمن الخاص، وربما نكون أكثرَ دقةً لو قلنا إنَّ نقطة التحول التي تشير إلى الاتجاه الذي تسير فيه الحرب على الإرهاب في هذه الصناعة. إن حالة الحرب السريعة والمفاجئة التي أعقبت هجمات 11 أيلول/ سبتمبر قد استغرقت موارد الحكومة الأمريكية بما يتجاوز ما يمكن توقعه في العاشر من أيلول/ سبتمبر عام 2001، وهو ما أدى إلى خلق فرص أمام الشركات الخاصة لتعويض النقص الذي طرأ على مصادر الأمن الحكومية. والمثال الآخر على حجم هذه الطَّفرة التي شهدها قطاع الشركات الأمنية الخاصة، أن جيمي سميث حاول، منذ أن ترك العمل في بلاك ووتر، أن يركب هذه الموجة من الفرص السانحة، فقام بتأسيس شركة خاصة به أثبتت نجاحها حتى الآن، وهي مجموعة سميث الاستشارية للمخاطر الدولية[1]، متخذاً من فيرجينيا بيتش مقراً لها.

1- SCG - Smith Consulting Group International Risk.

إن أهـم مصدرين حكوميين طويلي الأمد لعمل المتعاقدين المستقلين في المجال الأمني وشبه العسكري في أفغانستان هما البحث عن أسامة بن لادن، وتوفير الحماية الشخصية للرئيس حامد كرازاي. وفي سعيي إلى التجوال في عالم المتعهد الأمني الخاص، قمت بوضع ترتيبات لزيارة صديق قديم لي كان يعمل في القوات الخاصة، وهو الآن مكلف بحماية حياة حامد كرازاي. وفي أثناء وجودي في أفغانستان، كنت آمل أن أشاهد تقدم عملية البحث عن ابن لادن.

وبعد سنتين من بدء الحرب، تجولت في أفغانستان؛ لكي أشاهد كيف تغيرت الحرب على الإرهاب.